

الولادة عسيرة في المنفى . .

قصته بقلم محمود الرماوي

— وماذا بعد ؟

تساءل شوقي بمرارة . انكفا السى الخلف ، واحساس بالاختلاط يقفد اقدامه رشدها . الظلام يحتوي المدينة تماما ، والاهالي بداوا يسفرون في الخفاء عن وجوههم الاخرى . الخضار التالف واللعاب الكرتونية الفارغة ومزق الجرائد ، تتناثر في الشارع الذي يمخره بشكل أوحى له بالخراب والحزن . جاءت رغبة في التوزع في الاماكن الخلفية والفامضة ، لكنه عاد واختصر الرغبة عندما تفرس في دخيلاته بامعان ، فأيقن انه لو فعل ، سيكون ذلك هربا وليس اختيارا .

لم يكن قد افتتحها بعد ، وكان جديدا على تلك المدينة الباهظة . ترك وراءه مدينة صغيرة تتسع لاسرة واحدة ، بعد ان صادرها انفسكر الغرياء .

كل يوم بعد الظهيرة ينزل من بيته الى منتصف المدينة ، حيث يحاول ان يمارس الاحتكاك ، والتعرف الى الاشياء مباشرة ، دون وسيط ، ان يهبط كل يوم من الجبل ، كان ذلك يعزز بشكل ما ، من احساسه بالانحدار . الشوارع وسبعة ، غير انها ملأ بالناس ، لذلك فهو يحشر قامته الضامرة ، وينسكع باحثا عن شيء لا يدريه بالضبط ، وقد يكون غير مفقود ؟ . الارصفة تحت حدائه يلعبها ، وليس ثمة ما ينسبه اليها ، كتلك العشرين ، تلك الكمية من الزمن التي انفقها خارج رغائيه واهتماماته الحقة . كان كل همه ان يتصالح مع المدينة الجديدة ، رغم ثقته بالتنازل ، في سبيل ان ينغمر فيها ، لكنه بوضوح كان يشعر انه مجرد عابسر لا يلبث ان يرتد الى القرب الضائع ، او يستأنف انفلاته من خيوطه .

وجوه المدينة تختلط بحجم التناقض بين آدميها . طفل متسخ « يسرق » شيئا لذيذا فيلقطه شرطي حريص على الامن . عجوز مزمنة تزحف لصق الجدران . وجه سبق ان رآه هناك . رجل متكرش — تعجبه الدنيا ، فيضحك بصوت كازلزال . شاب يسأل صاحب البقالة ان كان بإمكانه ان يشتري اربع سجائر فقط . تقول لها البلد صارت ضيقة ، ياي ! ولم نعد نحتمل .

اعلانات السينما عن العمالقة والاعزاء والمدن المحترقة ، والضحك المتواصل . الذين ينتظرون نوقف العربات التي لا تتوقف . جنسدي يؤدي التحية لضابط لا يكثر . التي ربما هي . من يدري ربما تكون هي ، فالبشر يخترقون طرقا متقاطعة وقد يلتقيها عرضا . ويعود السى بيته — في بيت عمه ، وهو حائر ان كانت الحياة هكذا ، ام هو لا يحسن الرؤية .

يبحث عنها من زمان ، من اول الزمان اجل حتى هنا وهو مخلوع ، وكيف يصح ذلك وهناك من ينساقطون فوق ارض يعشقونها حتى الموت ، وكان يفترض به ان يكون كذلك ؟ .

لا يمكن لاي كان ان ينكر مدى تحوله بين السادسة عشرة والعشرين ، فخلال هذه الفترة الشائكة ، احس شوقي بضالته ازاء العالم الكبير ، اذ كان كثيرا ما تصيبه نوبات دوام فظ ، او حالات اختناق مريع عندما تتلكأ رغباته في التحقق . ويبدو لمن يكون منصفاً انه معذور على ذلك ، فليس افسى من ان يدرك شخص ما فقدان لوقفه ، او تيه الآتي امام اقدامه . لكن اجمل ما حدث له ابان تلك المرحلة (وقد أسر لي بذلك) انه اصبح يشعر للمرة الاولى ان قامته ترتفع ، وكلمته اصبحت فسي البيت مسموعة ، ووالدته تحول كلامها الى وشوشة مع امرأة الجيران في حضرته . اما الاب فقد كان عقبته في الاستقلال ، مسن فرط تصببه

لابوته ، ولا يسمح له بان يرى الى الاشياء الا من خلال عيونته هو . حقا شيء بهيج ان يكون لاي منا ، بعض نفوذ في عالمه الصغير ، ما دام قد اصبح واحدا من جهوري الصوت ، هذا رغم اني شخصيا يدشنني في الصفار اصابعهم القصيرة ، وكيف يحلمون وعيونهم علسى وسعها ، يجرؤون على تنفيذ تلك الاحلام التي تتناقض ومنطق النهار .

ليس ذكيا من حدس ان شوقي لا بد اصطدم مع التجربة ، فهذا التمهيد لا شك له كبير علاقة بما يسمونه الحب . عندما احبها — وقد كرس كامل كيانه واعصابه وايامه لهذا الحب ، مع انه اكتشف في ما بعد ، وبعد فوات الوقت ، ان هذا من اخطائه التي لا تفتقر ، وسيضي زمن طويل وثقيل كي يتجاوزه . . كنت اريد ان اقول عندما احبها فقد اتصالة بكافة اعضاء العالم ومؤسسانه ، اذ اصبح كما قال لي يكتفي ب « ممارسة ذاته مع ذاته » عندما لا يستطيع لقيها .

خارج الدائرة تبطل الاشياء عن الحضور . المدن ، اجمل المدن اصبح يراها ركام حجارة وبشاعات . الآخرون يسقطون بكل امتيازاتهم وذكرياتهم . الاهتمامات العظيمة تحترق بكل التفاهة كسيجارة ينقصها الرغبة اليها . المستقبل ليس ابعد من مستقبل العلاقة ، والمصير . كيف يمكن ان يكون الحب اذن ، صالحا لشعوب العالم الثالث ، الذين من ضمنهم صديقي شوقي ، الذي يعلم بباريس ، وبمدينة صفيصرة وادعة ، شلحها ذات يوم ، يشملها الظلام وامسورة ؟ .

(عندما خرجت ، وكنت اجر هزيمتي كالعربة وراء الحصان ، لم يبق لي شهوة واحدة) .

كان عائدا من مشوار فاشل بعيد المدى . ريقه جاف كالعادة ، ورأسه به وجع من ساعة ، وكان متعبا وكل من في زحام الشارع غريب عنه . عبر لحظة تاريخية متسمة الابداع ، رآها بكل عيونته ، فاحس احساسا باهرا ان اعصابه تشهق من المفاجأة ، واشواقه تستيقظ وتتحرك الى اكثر من جهة . لحظتها اصبح للزمن توقيت مغاير جدا .

خلافاً لما يقوله المثقفون والعارفون والخبراء وبعيدو النظر وخريجو « مدرسة الحياة » ، فقد احبها من الرؤية الاولى ، كان يؤكد ذلك ويقصد من اول شعاع . من قال ان الانسان ، كل شخص ، ليس حالة خاصة وان تجارب الآخرين تسحب عليه بالضرورة ؟ عند ذلك ادرك ان مسألة الحب فيها اكثر من نظر . اكتشف ايضا ان وضعه الجديد ، والذي هو عنده للمرة الاولى في حياته ، لا يمت بصلة الى ما يتردد في القصص والاغاني والافلام ، غير انه اخذ يقبل بشرف فريد على هذه المنشطات اكثر مما مضى . امرأة ناضجة ، كالمبرقاع في الوطن عندما ينضج . اكتشفت وجودها من كذا عام . عيونها ليست حقا مشعبا او بحيرة او شلال غسل ، لان عيونها جميلة . طويلة في مستوى النطلع اليها ، وانا اعتقد ان طولي القامة نموهم طبيعي اكثر من القصار . لها سحنة حاملة متشربة من ماء الحنان ، لا تقبض عليها الذاكرة من أثر الانبهار ، او من ذلك النوع السذي يسافر طيفه بعيدا خلف منطقة اللاوعي . بيضاء مثل الزنابق بدون اطرف او تقصير . لا تستعمل الحذاء بالكعب العالي ، مما يدعو للاستنتاج ان لها شخصية غير مهزوزة . تتمتع بصوت واطء دفيء ينبه التطلعات المنسية . تفاصيلها الاخرى مخطورة . . .

الوقت مساء . الشمس تسحب اشعتها الاخيرة ، وليس من

يستشيره المشهد أو يعنيه . الناس في الشوارع يطاردون شواغلهم أو يتخلفون حولها . شوقي يستند الى مصباح كهربائي لم يمارس مهامه بعد . باعة الصحف اصواتهم عالية عن الرجال الذين يضاجعون الارض على سرير من دم وكبرياء . شوقي يرد تحية المساء لصديق تعرف اليه في المقهى ونسي اسمه . صديق آخر يقبل عليه ناشطا ويشمله بنظرات تساؤل واستنكار ، مشفوعة بابتسامة معلقة على شفثيه .

ماذا تفعل هنا ؟

أقف .

هم يموتون وقوفا ، وانت كذلك .. مع الفارق .

وانت تموت ماشيا تثرثر .. مع المقارنة .

هل تنتظرها حبيبتك المستحيلة ؟

انتظر ان تفرج عني ، وتذهب .

كتاب جيفارا الاخير ، هل قرأته ؟

لا استطيع ان اقرأ شيئا هذه الايام ، شهيتي مقطوعة .

.. غير رسائلها ، و .. صديقنا طاهر ، ما هي اخباره ؟

اشترى حذاء جديدا بمناسبة التنزيلات .

وغير ذلك ؟

قال انه اصبح سريعا ما يضجر ، وقد يستقيل ويسافر .

لقد سافر .

لماذا تسأل اذن .. أين سافر ؟

هناك الى القرب من بيت حبيبك .. الا تفكر مثله بالسفر ؟

(في سره : أفكر) لست مسؤولا عني . كنت اتوقع ان يفعلها .

وانا اتوقع انك تنتظر امرأة لا تنتظر رؤيتك .

.. . .

ولا تدري ان الوقت لا يتسع .

.. . .

وتنسى كيف اقتلعت في ذلك اليوم ، كشجرة هرمة جذورها

فالتة ..

(تطلع شوقي الى مهرجان الالوان في الافق) .

وتجتز الآن هومك الصغيرة مثل مترف بليد .

ابنلع ريقه بصعوبة واشعل سيجارة بعصية وارتخاء) .

اراك قلقلها لانها تأخرت .

لانك تأخرت في الوقوف معي ، دون ان ادعوك .

ستندم ، اقول لك ستندم .

الندم مطهر .

وقد يفضي الى الانتحار .

تجمهر المارة في مطلع الشارع ويبدو ان مزاج عربيتين قد اصطدم، فاستقطب العابرين الذين يفقدون الوجهة في المسير . ظل شوقي مزروعا في مكانه ، وكأن شيئا لم يكن . هرول الآخر راكضا وكأنه تأخر عن مهمة مستعجلة . شيعه شوقي بعيون غضب ومحبة ، وعاد الى محاوره الوقت والتوقعات . الرجل ينتظر المرأة دائما في هذه البلاد ، لماذا لا يحصل العكس ؟ الوقت الذي حدده لها قد أزف الآن . من بعيد اطلت كالمفاجأة الحارة ، فسرت في جسده ارتفاعا ساخنة ، ولم يعد يبصر شيئا حوالبه .

رمق هندامه للحظة ، وزحف بخطوات لاهثة لا تخلو من ارتباك ، صوب الشخص الذي معه على موعد . كان مصمما على امسية مترعة يفرغ فيها كل الكلام الذي في خاطره لها . لم يلبث الشخص القادم من امام ان دلف الى بناية شاهقة ، ولم يكن وحده ، وغاب فسي جوفها (من جديد اجر العربية ورائي . الجسر يرفض ان ينهض بيننا . كنت اشتاق ان اولد مرة اخرى ولو في المنفى . لم ابدأ بعد . عبات كل قواي للانتظار فانتظرني الهزيمة . كتبت لها ، وكتبت لي . احببتها دون اختيار مسبق ولم تنفص عن شعورها نحوي .

قلت لها سنتلقي ، اجابتنى انها لا تجرؤ . قلت تخسرين شهادة الموقف . لم تجب او لم تكثرن او سخرت . لدي مشاريع كثيرة تنفذها

معا ، ولم يكن عندها سوى مشروع واحد . لا يمكنني ان اكون كذلك . سبقتني في الجيء الى العالم بربع سنوات ، ولم ازل اتناول مصروفي اليومي بامتنان بالغ من الاب ، وامور اخرى . لكني احبها . من قال لي ان افعلها ، لماذا لا افكر . ابي ينصحن دائما بتحكييم الرأس ، مسن حرضني على العقوق . غيابها الآن جحيم يطوقني . الآن اذكرك يوم غابت مدينتي عن عيوني وذلك الجحيم . حتى في الاسابيع الاولى من الوفاق معها ، كنت اشعر ان جدران الرحم ضيقة واني عسيرا ما اطل . هي صعدت الى داخل البناية ، الى فوق . صعدت غصة حادة من مكان ما في جسدي واستقرت في حلقي ، وقامت بمهمتها . لو كنت مدمنا على الخمر او المخدرات او النساء لاسترحت قسطا من الوقت . لم تزل خبرتي بعالم الرجال ضئيلة ونظرية) .

الرصيف يتأرجح تحت اقدامه ، الخيبة تقرضه مسن الداخل . الاطراف منه تختلج كما لو انه تحت تأثير كانوس مدمر .

تبين له ان السابلة تجمعوا في مطلع الشارع حول سائحة طليعية، من بلد اشقر . ابتسم ابتسامة مملوطة تصخ سخرية . حاول ان يصدق، ولم يكن يحتوي لعابه على ريق . دخل دارا للسينما دون ان يعرف الى عنوان الفيلم ، وهناك اصابته نوبة دوار فظ ، كثيرا ما تداهمه تنلكا رغباته في التحقق . مشاهد الفيلم ينظر اليها ولا يراها . البطسل يصادف حبيبته في المقهى . فسي منعطف شارع رئيسي وآخر غير رئيسي . الطلة تفضح صندوق اسرارها وتبادل حوارا حميما . يذهبان الى شقته . البطل يفمر حبيبته بشهوة عينية والقبل . ينهضان . يتفقان على عدم الزواج . حدثت احداث اخرى تدخل فيها البوليس والعجائز والمحاكم والموسيقى والرصاص ، لم يلتفت لها .

وقف الرواد الذين يشاهدون الفيلم للمرة غير الاولى معلنين انتهاء الحفلة . ود لو يظل الفيلم مستمرا لانه كان يجوس في دهاليز ذاته عبر المناظر والاصداء ، دون ان يدري . المدينة فارغة تستسلم للنماس . الشوارع عارية من الاحذية . دوريات الشرطة متسمة بارتخاء امام الشركات والمصارف والمحال . السماء زرقاء على سوداء ، والقمر اصفر، والنجوم تحصى . موجة من النسيم الحيادي تتسلل الى رثنيه . لم تكن به رغبة بالعودة الى بيت الاب - في بيت عمه . هل يكون هذا هو كل اليوم .. وماذا بعد ؟ . تسائل بمرارة واطلق اقدامه كي تسير كيفما اتفق . حاول ان يضع في خلفيات المدينة غير المطروقة ، لكنه عاد ونبد الفكرة . وقع اقدامه بسمعها جيدا . فسي داخله اكثر من شخص يتكلم ، حاول ان يتسمع فلم يستطع ان يميز الاصوات . ظل يجدف وحيدا في الشارع ، حتى نهره شرطي مستيقظ وسأله عن هويته .. كان قد قطع مسافة بعيدة ووصل الى ظاهر المدينة . الساعة ما بعد منتصف الليل ، وامتداد الشارع الموقل في الوحشة يؤدي الى مدينة صغيرة ، صادرها العسكر الفرباء ذات ظهيرة محرقة .

محمود الريماوي

برقاة في سورة الماد

ديوان جديد
للشاعر العراقي
محمد سعيد الصكار

٢٠٠ ق . ل

صدر حديثا